الحلقة 7

إعداد: هشام المنشاوي

أسلمت وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت في خلافة عمر

صفيَّةُ.. أول مسلمة قتلت يهودياً

الإسلام أكرم المرأة أيما إكرام، بنتاً كانت زوجاً أو أمّاً، أو أختاً، وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من النساء اللائي كان لهن دور بارز في تاريخ البشرية كحواء وأم موسي وزوج فرعون و مريم بنت عمران، ونزلت آيات من القرآن في عدد من النساء وأفردت من القرآن للنساء سورتان هما سور النساء وسور الطلاق، وتحدث القرآن عن المؤمنات اللاتي جئن إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم مبايعات أو مهاجرات كما بينته صورة الممتحنة، وما ذاك إلاّ لأن للمرأة دوراً كبيراً في المجتمعات .

إن المرأة المسلمة تقع تحت ضغوط تكاد تبعدها عن منابع الإسلام الأولي وتحول بينها وبين تفهم رسالته، لهذا كان علي المرأة المسلمة: أن تتعرف علي نساء الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم، بمعرفة سيرهن وأخبارهن، لتدرك الحال التي كن عليها ولتجعل منهن قدوة حسنة ومشاعل تنير أمامها الطريق وستجد الأخت المسلمة بين دفتي هذا البحث أربعين نموذجاً من سير الصحابيات الجليلات اللاتي صحبن فجر الدعوة وشاركن فيها وارتفعن بالإسلام إلي آفاق سامية ما كن يستطعن الوصول إليها لو لا صدق الإيمان وإخلاص العمل، لقد كانت كل واحدة منهن مثالاً قديراً لمن أيّد الدعوة وحمل الراية، ودافع عن الحق ووقف كالطود الشامخ من حول رسول الله صلي الله علين وسلم يؤيده ويناصره وعسي أن يكون في هذا السلسلة من الحلقات التي تقدمها جريدة "الوسط" ما يقود خُطا النساء والمسلمين علي طريق الإيمان، ومما يذكرهن بحياة تلك النسوة اللائي هانت عليهن في سبيل الله المكاره وأفضي يقين الإيمان إلي قلوبهن وسيطر علي نفوسهن وعقولهن، فآثرن الآجل علي العاجل والدائم علي الفاني، ففزن برحمة الله ورضوانه.

المرأة في عصرنا هذا قد إبتعدت كثيراً عن الكتاب والسنة وما كانت عليه الصحابيات رضي الله عنهن ونساء فجر الإسلام اللاتي لا يتحدثن مع أجنبي إلا من وراء حجاب في الأمور الضرورية ولا يخضعن بالقول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض .

اذا نظرنا لأي مجتمع في الوجود نجد بأنه يتكون من الرجال والنساء، ولكل دوره ومكانته الإنسانية والقيادية والاجتماعية وعلى هذا فإن المجتمع الذي كوّنه النبي صلى الله عليه وسلم كان مجتمعا مثاليا وساميا بمعنى الكلمة، فهو المربي الرباني الأول، والصحابة رباهم القرآن التربية الإيمانية الكاملة التامة، فأخلصوا لدينهم وأحبوا مربيهم، فكانت الإنجازات الباهرة في فترة محدودة وعلى جانب آخر برز لنا دور النساء والمساند لدور الرجال، إما أمهات أو زوجات أو بنات أو أخوات تربوا على مائدة الرسول صلى الله عليه وسلمن وكانوا خير معين للصحابة الكرام في جميع المجالات: العلمية منها، والجهادية (القتالية)، والطبية...فظهرت الفقيهات منهن والمقاتلات والطبيبات...وعلى كافة الأصعدة، وتميزن برجاحة العقل وصواب الرأي، فهن بهذا يستحقنَّ بأن يكنَّ قدوة ساطعة عبر التاريخ لمن بعدهن. فجاء هذا الكتاب، ليسلط الضوء على النساء الجليلات اللاتي ساندن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين . لقد نزل الإسلام دينًا حسنًا يُدافع عن المظلوم دون النظر إلى جنسيته وعرقه وجنسه ومنشئه فالإنسان هو الإنسان من أيّ أرض كان، وما زال يعتني بالمرأة حتى كانت وصية رسول الله –صَلى الله عليه وسلم– قبل موته لأصحابه فهنّ القوارير ولكن مع الانفتاح العالمي والتأثر بالعالم الغربي بدأت تتشكل حول العيون الإسلامية بعض الغشاوة في أنّ القانون الغربي يرفع من شأن المرأة .

◆ وقفت الصحابية عمة النبي مواقف مشرِّفة حفظها التاريخ

◆ أنجبت الزبير والسائب وقد شهدا بدر والخندق وغيرهما واستشهدا باليمامة

◆ ضربت مثلا رائعا رضي الله عنها وأرضاها عندما قاتلت يوم أحد

توفيت عن عمر يناهز الثلاثة وسبعون عام

من سير الصحابيات الجليلات، وهي من أهل بيت النبي عليه الصلاة و السلام، و عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، السيدة صفية، وهي صفيةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشم القرشية الهاشمية، شقيقة حمزة بن عبد المطَّلب .

من حين لآخر، نضع بين أيديكم على قيمة السيرة، الله جلَّ جلاله بعث الأنبياء بالهدى ودين الحق، ولكن النبي والرسول مهمته أكبر بكثير من مهمة التبليغ، لأن المهمة الكبرى هي القدوة، فحينما يستمع الإنسان إلى فكرة، ولا يراها مطبَّقةً، فلا قيمة لها، ولا تلفت نظرَه، ولا تستجلب انتباهه، إلا إذا كانت هذه الفكرة واقعة، فلذلك كان الأنبياء من بني البشر، والأنبياءُ تجري عليهم كلُّ خصائص البشر، من هنا كانوا سادةَ البشر، من هنا اصطفاهم الله عزوجل، ليكونوا أنبياءه ورسله إلى العالمين، فالإنسان حينما يرى الحقَّ مطبَّقا، حينما يرى المثلَ العليا واقعا يُشدُّ إليها، أما لو استمعت إلى كلمة حول خلق معيَّن، ولم تعش هذا الخُلقَ، ولم تره مجسَّدا في إنسان، فإنك لن تلتفت إليه، ولن تلقيَ بالاً إليه .

من هنا كانت السيرةُ هي الإسلام المطبَّق، الإسلام فيه منطلقات نظرية، وفيه منطلقات عملية، المنطلقات النظرية مثلا، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف الآية: 21]

سيرة صفية: هذه صفيَّةُ عمَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت في الجاهلية زوجةَ الحارث بن حرب بن أمية أخي أبي سفيان، مات عنها، فتزوَّجها العوَّام بن خُويلد، فولدت له الزبير والسائب، وقد شهدا بدرا والخندقَ وغيرهما، واستشهدا باليمامة، أسلمت صفيةُ قديما .

وبالمناسبة: السابق في الإسلام له فضله، والإسلام مرَّ بمراحل صعبة جدا، قاومه المشركون، وقاومه الكفار، ضيَّقوا على الصحابة الكرام، وقاطعوهم، نالوهم بالأذى، ونكَّلوا بهم، والإنسان أن يسلم في هذا الظرف الصعب، فله أجر كبير، أما حينما انتصر الإسلامُ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجا، صار الإسلامُ مغنما بعد أن كان مغرما، فكلُّه عند الله بحساب، أنت حينما تسلم في زمن يُحارب فيه الإسلام في بعض الأزمان، حينما تسلم يعلو شأنُك، وتُتاح لك فرصٌ ذهبية، وأحيانا حينما تسلم، وتلتزم، تشعر بحرج شديد، كلُّ حالة لها أجرها، الحساب عند الله دقيق جدا، ليسوا سواء؛ من قبل الفتح كالذي آمن بعد الفتح، هناك بونٌ شاسع بينهما .

فصفية رضي الله عنها، أسلمت قديما، وهاجرت إلى المدينة المنورة، كانت قد بايعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، عاشت كثيرا، وتوفيت في خلافة عمر سنة عشرين، ولها من العمر ثلاث وسبعون سنة، وهي أول مسلمة قتلت يهوديا، وكانت قد قاتلت يوم أحد رضي الله عنها وأرضاها .

أيها الأخوة، من علامة نضجك: أن تعتقد، وأن ترى، أن المرأة لا تقلُّ عن الرجل، مساوية له تماما، مكلّفة كما هو مكلَّف، مشرَّفة كما هو مشرَّف، تسعد بربها كما يسعد بربه، وإذا قال الله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [سورة آل عمران الآية: 36]

بمعنى أن لكلٍّ من الطرفين خصائص هي في حقِّه كمالٌ، أما المرأة فهي مشرَّفة، ومكرَّمة، ومساوية للرجل، ولها خصائص تمتاز بها، هي كمال في حق مهمَّتها .

الصفقة الرابحة

لقد بايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم النساءُ الصحابيات، و بايعن الصحابيات رسول الله، وقد نقول: يبايع رسولُ الله النساءَ الصحابيات رضوان الله تعالى عليهن، وبايع النبيُّ عليه الصلاة والسلام عمَّته صفيةَ بنت عبد المطلب رضي اللهُ عنها، فكان لبيعتها أثرٌ بارز في حياتها، من طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة الزوج بالمعروف، وبالحفاظ على النفس، والشرف، والأمانة، وإخلاص في القول، والعمل لله تعالى، المؤمن الصادق باع نفسَه لله، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام الآية: 162]

والمؤمن الصادق بايع اللهَ عزوجل بأن له الجنة، وبعد أن بايع اللهَ عزوجل، لا يحقُّ له أن يسأل: لمَ فعل اللهُ معي هكذا؟ المؤمن صدَق ما عاهد اللهَ عليه، وباع نفسَه لله عز وجل، فهو يجعل كلَّ طاقاته وإمكاناته في سبيل الله . وقفتْ هذه الصحابية الجليلة عمة النبي صلى الله عليه وسلم مواقفَ مشرِّفة، حفظها لها التاريخ، والإنسان يصبح كلمة، إما إنه مشرَّف في التاريخ، أو أنه محتقر، هناك في التاريخ أبطال ، وهناك طغاة، وهناك محسنون، وهناك مسيئون، والإنسان بعدما ينتهي أجلُه، يبقى ذكرا، إما أنه ذكرٌ حسن، وإما أنه ذكر سيء، ونحن الآن في الحياة، والخيارات أمامنا واسعة جدا، لكن بعد أن ينتهيَ الأجلُ، يصبح الخيارُ محدَّدا، فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار .

مرَّ معي بعضُ الأحاديث الشريفة: أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام مرَّ مع أصحابه بقبر، فقال عليه الصلاة و السلام:

(صاحبُ هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم أحوج إليهما من كل دنياكم). أنت الآن ترى الدنيا عظيمة، مؤسسات، شركات أرباح، بيوت، مركبات، نساء، لكن حينما يصبح الإنسان تحت أطباق الثرى، الشيء العظيم ركعتان، الشيء العظيم تلاوة القرآن، الشيء العظيم عمل صالح، الشيء العظيم إنفاق المال، والذي يقوله الإنسان الشارد:

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي × فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الفجر الآية: 24–25] والحقيقة: من هو العاقل؟ هو الذي لا يندم، ومن الذي يندم؟ هو الذي ارتكب خطأ فاحشا ، وخطأ مدمِّرا، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الزمر الآية: 15]

إنّ أشدَّ أنواع الخسارة، أن تخسر الآخرة، وأشدَّ أنواع الخسارة، أن تخسر نفسك التي خلقها اللهُ للجنة، فأوصلتها إلى النار، وأشدُّ أنواع الخسارة، أن تأتيَ اللهَ يوم القيامة مفلسا، ليس لك عمل صالح، وإنّ أشدَّ أنواع الربَح، أن تكون في طاعة الله .

مرة سمعتُ رجلاً، يلقي كلمةً في عقد قران، شعرتُ شعورا لا يوصف، الكلمة معروفة، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) [أخرجهَ النسائي في سننه]

قلت: ما من مرتبة ينالها الإنسانُ أعظم من أن يحبَّه اللهُ، ويحبه رسولُه، وطريقة محبة الله بين أيديكم، طريق مفتوح الأبواب، طريق سالك، وآمن، وسريع، وقصير، لمجرَّد أن تصطلح مع الله، وأن تعقد العزمَ على طاعته، أحبَّك اللهُ، وإذا أحبَّك اللهُ، أحبَّك كلُّ شيء:

يُنادَى له في الكون أنا نحبُّه فيسمع مَن في الكون أمرَ محبِّنا

وإذا أحبك اللهُ، ما فاتك من الدنيا شيءٌ، لذلك أكبر عقاب، يعاقب به الإنسان، قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين الآية: 15]

أن يحجبك اللهُ عنه، هذا أكبر عقاب، فالسيدة صفية عمَّة النبي عليه الصلاة و السلام، عاشت عمرا، وانتهى العمرُ، الآن بقيت ذكراً، بقيت كلمة طيِّبة عنها، وعملها محفوظ عند الله عز وجل .

قلت مرة كلمة: هناك امرأةٌ قُلامة ظفرها، تساوي ألف رجل، وأنت كمؤمن إذا أخلصتَ لله عز وجل، وأقبلتَ عليه، واصطلحتَ معه، وأطعته، وخدمت عباده، أحبَّك اللهُ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)) [أخرجَه البخاري في الصحيح]

وقفت هذه الصحابية الجليلة عمةُ النبي عليه الصلاة والسلام مواقفَ مشرِّفة حفظها لها التاريخ، كانت انطلاقا من تلك البيعة الصادقة، وبيعة النساء، جاء الخطابُ الإلهي بخصوصها، فقد قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الممتحنة الآية: 12]

أيها الأخوَة، أثبت بيعةَ صفية للنبي عليه الصلاة و السلام ابنُ سعد، فقال:

((أسلمتْ صفيةُ، وبايعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، ولما جاءت النسوةُ لمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كنَّ متلفِّفات بمرُطهنَّ بين المغرب والعشاء، فسلَّمن، وانتسبنَ، –أي عرَّفت كلُّ امرأة بنسبها– فرحَّب بهن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ما حاجتُكنَّ؟ فقلن: يا رسول الله، جئنا نبايعك على الإسلام، فإنا قد صدَّقنا بكَ، وشهدنا أن ما جئت به حق))

فعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْت رُقَيْقَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ:

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ نُبَايِعُهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ، قَالَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ، قَالَتْ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا، هَلُمَّ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ)) [أخرجه النسائي في سننه]

إنِّي لا أصافح النساء، هذه الوقاية، والوقاية خيرٌ من قنطار علاج، إني لا أصافح النساءَ ، قولي لألف امرأة، قولي لامرأة واحدة، وهذا من صفات المؤمن، المصافحة ملامسة، والملامسة لها مضاعفات، لا تُحمَد عقباها، والمؤمن طاهر، وعفيف، والمؤمن يسدُّ مسربين للشيطان، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)) [أخرجهَ مسلم في سننه]

أحيانا أقول لبعض الأخوة: هناك إنسان يُؤخذ بامرأة، وإنسان يؤخذ بالمال، والمالُ والنساء نقطتا ضعف في شخصية الإنسان، فالمؤمن سدَّ هاتين النقطتين، فهو محصَّن من هاتين النقطتين، لا يخفض رأسَه ذلاً، ولكن الذي ضعُف أمام المرأة، ثم اعترف بفعله الفاحشة معها على مستوى العالم كله، صار في الوحل، أليس كذلك؟ امرأة أذلَّته، وجعلته في الوحل، لأنه ضعف أمامها، فسقط من عين الخلق، ومن عين أقرب الناس إليه، والدعاء الشهير، دعاء النبي سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة و السلام:

صورة توضح معركة احد

رسم يبين كيف كانت غزوة الخندق

مسجد الرسول

بايعت الرسول وهاجرت إلى المدينة